

الفصل الثانى

الشواهد التى تؤكد تاثير الفكر الأوروبى
بتراث العرب فى الأدب والفلسفة والجغرافيا
والتاريخ والفنون والعمارة والموسيقى

الشواهد التى تؤكد تأثر الفكر الأوروبى بتراث العرب فى الأدب والفلسفة والجغرافيا والتاريخ والفنون والعمارة والموسيقى

من المعروف أن كل حضارة فى التاريخ استفادت من جهود السابقين لها، وإلا لما تقدمت الحضارة العالمية، ولأصبح لزاما على كل أمة أن تبدأ البناء من أساسه.

لقد استوعب العرب الفكر الهندى والفارسى واليونانى ولم يكن دورهم هو مجرد الحفاظ على هذا التراث القديم من الضياع فحسب بل أضافوا إليه الكثير، كما قاموا بتطوير هذا التراث وتصحيح مساراته مما ساعد على ظهور النهضة فى أوروبا فى القرن الخامس عشر، الذى بدوره لتأخرت هذه النهضة قرون عدة.

لقد قدم المسلمون للثقافة الإنسانية تراثا ضخما فى شتى ميادين العلم والثقافة والأدب، وكانت كتبهم هى المراجع الأساسية التى ترجمت إلى اللاتينية ليرتشف الأوروبيون من مناهلها، وظلت قرونا بمثابة المصادر الرئيسية التى أنارت الطريق أمام العلماء والباحثين فى جامعات أوروبا حتى بزغت شمس نهضتها، وفيما يلى نعرض للشواهد التى تؤكد تأثر الفكر الأوروبى بالفكر الإسلامى، والتى تبين مدى مساهمة العلماء المسلمين فى نشأة العلم الحديث خاصة فى الأدب، والفلسفة، والجغرافيا، والتاريخ، والفنون، والموسيقى، والرياضيات، والفلك، والكيمياء والطب والصيدلة وغيرها مما كان له أكبر الأثر فى المساعدة على ظهور النهضة الأوروبية الحديثة.

١ - الأدب

يختلف عطاء العرب للنهضة الأوروبية فى ميدان الأدب خاصة الشعر عنه فى أى ميدان آخر من العلوم، فالشعر العربى كان عربيا خالصا لم يتأثر بأداب حضارات أخرى سابقة بل نبت فى صحراء

الجزيرة العربية نبثا أصيلا ولم يسهم في تطوره إلا قوم استظلوا بالحضارة العربية وتأثروا بها، فقد تطور الأدب في العصر العباسي تطورا كبيرا، ونهج الشعراء فيه مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب وغير ذلك من فنون الشعر المختلفة التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من ترف وحضارة. ولاسيما في بغداد، وكان من أشهر شعراء تلك الفترة «أبو نواس» الذي ذاعت قصائده في الغزل والخمر والصيد، «أبو تمام» المشهور بنزعة العقلية والفلسفية في الشعر «والبحتري» صاحب المدائح الخالدة و«ابن الرومي» المعروف بغزارة شعره، و«أبو العتاهية» الذي اشتهر بالحكمة والغزل الرقيق، و«المتنبي» الذي اشتهر بالفخر و«أبو العلاء المعري» شاعر الحكمة وغيرهم كثيرون هذا إلى جانب الشعراء والأدباء من النساء اللاتي لعبن دورا هاما في الحياة الأدبية في المجتمع الإسلامي مثل «رابعة العدوية» التي سلكت طريق الزهد والتصوف، والاميرة «عليه بنت المهدي» صاحبة الشعر الرائع والغناء الراقى ومثل «العباسة بنت المهدي» التي لعبت الخيال دورا كبيرا في القصص التي أحاطت بها ومثل «عايدة الجهنينة» التي قال عنها السيوطي أنها كانت أديبة شاعرة فصيحة فاضلة كاتبة»^(١).

لقد تأثرت الآداب الأوربية بالأدب العربي خلال العصور الوسطى وبداية الحديثة، حيث نجد تأثيرات عربية واضحة في شعر المناجاة والشعر الشعبي، والحكم، والأمثال، كما حاز القصص الإسلامي شهرة عظيمة وأخذ يزدهر في بلدان أوروبا في القرن الثاني عشر، كما اتجه الأوربيون شطر الأدب العربي المعروف بالإبداع. وقد أكد ذلك المستشرق جب بقوله «أن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لأدب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها في شعر العصور الوسطى ونثرها»^(٢) وأن الآداب الشرقية التي لها مثيلاتها في الأدب الغربي كانت بمثابة المفتاح الذي طرقة الغرب، وهذه الآداب التي كسبت إعجاب الأوربيين هي التي أثارت الطريق للأدب الغربي. وإلى جانب ذلك فقد أوضح الشاعر الإيطالي «دانتي» بأن الشعر الإيطالي ولد في صقلية حيث كان للعرب حضارة زاهرة هناك، وقد شاع نظم هذه الشعر في إقليم بروفانس في جنوب فرنسا، وانتشر من هذا الإقليم على يد الشعراء الجوالين الذين عرفوا باسم «التروبادور». ومن المعروف أن شعر التروبادور الذي ظهر في صقلية ونشأ في بلاط الملك «فردريك الثاني» الذي كان العديد من الشعراء المسلمين يجتمعون فيه جاء عن طريق الاقتباس من الأدب العربي الأندلسي الذي امتاز بالرومانتيكية البالغة في الغزل الرقيق، والثناء الباكي، وفي تقاليد الحب، والغروسية، ومعاناة الحرمان، والتغنى بالمرأة.

(١) موسوعة العالم الإسلامي ص ٤٩ .

(٢) جب : تراث الإسلام ص ١٨٩ - ١٩٠.

وقد أكد ذلك المستشرق «روبرت بريغو» Robert Briffault بقوله إن شعر التروبادور إنما هو وليد الشعر العربي وأن أدباء الأندلس كانوا قد تحمّسوا لهذا النوع الجديد من الشعر واعتبروا ظهوره بينهم ثورة أدبية.

وإلى جانب ذلك فقد أُلح الأوربيون بالأدب العربي فطُبعت قصص «الف ليلة وليلة» العديد من الطباعات باللغتين الإنجليزية والفرنسية خاصة وأنها ألهمت خيال القراء، وعرفت أوروبا اسم «عمر الخيام». كما اقتبس بعض الكتاب الأوربيون موضوعات أدبية قاموا بنقلها إلى الأدب الغربي، فالكاكتب الإيطالي «بوكاشيو» الذي يعد أحد أعلام النهضة الإيطالية سائر في كتابه المسمى «الأيام العشرة» قصص «الف ليلة وليلة» التي كانت منتشرة حكاياتها في مصر والشام، وقد تضمن هذا الكتاب مائة حكاية على غرار «الف ليلة وليلة» وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال الذين اعتزلوا في بعض ضواحي المدن خوفاً من تعرضهم لمرض الطاعون، وفرضوا على كل منهم أن يقص حكاية على أصحابه في كل صباح للتغلب على الفراغ والملل الذي كانوا يشعرون به. وقد انتشرت هذه الحكايات في بلدان أوروبا، واقتبس منها الكاتب الإنجليزي «وليم شكسبير» موضوع مسرحيته «العبرة بالخواتيم» «All is well that ends well». وإلى جانب ذلك فهناك مجموعة من المستشرقين يرون أن «رحلات جاليفر» التي ألفها «سويغت» و«رحلة روبنسون كروزو» التي ألفها «ديفوي» استمدت أفكارهما من «الف ليلة وليلة»، يضاف إلى ذلك أن الشعر والفنر الإسلاميين أثرا في الشعر الإيطالي تأثيراً واضحاً وأبرز الأدلة على ذلك الكوميديا الإلهية La Commedia «دانتي» (١٢٦٥-١٣٢١) الذي أقام في صقلية فترة خلال عهد الملك فردريك الثاني الذي كان عاشقاً للثقافة الإسلامية. وقد استطاع «دانتي» أن يتوج بها الأدب والشعر الأوربيين في القرن الرابع عشر وفي تلك الملحمة وصف «دانتي» العالم الآخر، وتخيل ما شاهده هناك بشكل تجلّت فيه عبقريته كشاعر، فذكر ما شاهده خلال زيارته للجحيم، ثم أثناء انتقاله إلى المطهر والفردوس موضحاً ما فيها من نعيم وشقاء، كما تصور أن الشاعر الكبير «فرجيل» كان يصحبه في هذه الرحلة، وأنه كان بمثابة المرشد له وخلال ذلك استطاع دانتي أن يجسد ما تخيله تجسيدا رائعا في محاولة منه لمعرفة أسرار ما بعد الموت.

ومن يقارن بين هذه الكوميديا وبين قصة «الإسراء والمعراج» لأبي العلاء المعري يجد أن الكوميديا مستوحاة من هذه القصة التي ألهمت دانتي كثيراً من المفاهيم كما أنها مستوحاة من كتاب «محي الدين بن عربي» الأندلسي «الفتوحات المكية» الذي وضعه قبل ميلاد «دانتي» بخمس وعشرين سنة.

وكذلك من فكر ابن مسرة أستاذ ابن عربي وصاحب المدرسة الفلسفية المعروفة، فقد نقل دانتي من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري بعض الأفكار عن التصوف وإن كان قد عالجهما بذكاء، ويؤكد ذلك أن هناك روحاً مشتركة تتخلل القصيدتين من ناحية المعنى الأخلاقي المنبثق عن التصوف^(١) كما أنه أخذ من ابن عربي وابن مسرة أفكارهما حول الجحيم والجنة. وقد أكد العديد من المستشرقين ذلك ومن أبرز هؤلاء ما ذكره القس الإسباني «ميجيل بلاثيوس» في كتابه «الإسلام والكوميديا الإلهية» حيث يقول في مقدمته (لاشك أن ابن عربي وأستاذه ابن مسرة كانا رائدين لدانتي) و(أن الكوميديا نفسها عبارة عن قصة مأخوذة عن قصة أخرى معروفة في الأدب الديني الإسلامي وهي قصة المعراج) و(أن الماثورات الإسلامية إنما هي النموذج الأصلي الذي استوحاه دانتي)^(٢). وهكذا كانت الأصول الإسلامية بمثابة الأساس الذي بنيت عليه الكوميديا الإلهية. تلك القصيدة التي تمثلت فيها ثقافة الأوربيين في القرون الوسطى فيما يتعلق بالحياة الأخرى فقد استقى «دانتي» بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن المصادر الإسلامية أفكاراً لقصيدته^(٣) كما يؤكد وجود ثلاث مخطوطات لقصة الإسراء والمعراج بالإسبانية واللاتينية والفرنسية كان ملك طليطلة «ألفونسو الحكيم» قد أمر بترجمتها إلى هذه اللغات عن الأصل العربي، وتم نشر هذه النصوص الثلاثة في مدريد عام ١٩٤٩ تحت عنوان «معراج محمد» كذلك تأثر الأدب الأوروبي بالنثر العربي من ناحية أخرى وهي القصص التي تتخذ الحيوان محوراً لها كما حدث في نقل مجموعة القصص المعروفة باسم «كلىة ودمنة»^(٤) إلى الإسبانية، وقصص الحكماء السبعة أو السندباد، يضاف إلى ذلك أن هناك ثلاث مجموعات قصصية من أصل شرقي كان لها على الآداب الأوروبية تأثير كبير في العصور الوسطى، وأول هذه المجموعات «كلىة ودمنة» وهي من أصل هندي غير أنها لم تعرف طريقها إلى أوروبا إلا عن طريق النص العربي الذي ترجمه «عبد الله بن المقفع». ولم يك هذا الكتاب يعرف في أوروبا حتى اعتبره الأوروبيون المثل الأعلى لكتب المواعظ التي تلقى على ألسنة الحيوان والطير، لذلك تمت ترجمته إلى أكثر من أربعين لغة. وقد حاول الأوروبيون تقليده في قصصهم وأبرز الأدلة على ذلك ما كتبه الراهب «رامون لول» Ramon Llull تحت اسم «كتاب الوحوش» وكذلك بعض أقاصيص «بوكاتشيو» Boccaccio المعروفة باسم «الليال العشر» هذا فضلاً على أن النهج العام للعديد من القصص الإيطالية كان يتفق مع «كلىة ودمنة» ومع ألف ليلة وليلة أيضاً.

(١) عبد المنعم الجميلى : العالم الأوربي في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٠.

(٢) M.A.Palacios : Islam and the Divine Comedy.

(٣) عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ص ٤٩.

(٤) وضعها الفيلسوف الهندي بيدبا، وقام عبد الله بن المقفع بترجمتها .

يضاف إلى ذلك أن «قصة السندباد» تم نقلها إلى القشتالية في عام ١٢٥٣ تحت عنوان «كتاب مكاييد النساء وحيلهن».

أما عن القصص الفلسفية، فقد كان للقصص العربية أثر كبير على التفكير الأوربي ولعل أوضح مثال لذلك هو «قصة حي بن يقظان» للفيلسوف الأندلسي «ابن طفيل» (١١١٠-١١٨٥) والتي تركز على التوفيق بين الدين والفلسفة وعلى بيان أن التأمل العقلي المحض والإيمان الحقيقي طريقان يؤديان إلى نتيجة واحدة وهي الاتصال بالله والاتحاد به، وقد وصف الإسباني «بيلايو» هذه القصة في كتابه «أصول الرواية» بأنها أعظم آثار الأدب العربي أصالة وتفردا، لذلك فقد تمت ترجمة هذه القصة إلى لغات أوروبية عديدة كانت أولاها باللاتينية في عام ١٦٧١ ثم ترجمت بعد ذلك إلى الإنجليزية والهولندية والألمانية والإسبانية والفرنسية وغيرها^(١).

وقد قلد هذه القصة كاتب إسباني يدعى «جراثيان» Gracian في كتابه المسمى «الناقد» حتى أن الباحث الإسباني «بيلايو» نُبّه إلى ذلك بقوله إن الذي يقرأ الفصول الأولى من كتاب «الناقد» لا يتمالك دهشته للتطابق الغريب بينها وبين قصة حي بن يقظان. وهناك جانب آخر يُظهر أثر الأدب العربي في الآداب الأوربية هو أن هذه اللغات وبخاصة الإسبانية اقتبست عددا غير قليل من الأمثال العربية ذكرها المستشرق «جوستاف لوبون» في كتابه حضارة العرب^(٢).

وخلاصة القول أن الأدب القصصي الإسباني منذ القرن الرابع عشر وحتى السابع عشر الميلادي تأثر بمجموعات القصص العربي بشكل واضح، فقصص «الشطارة» الإسبانية يُوجد تشابه واضح بين شخصياتها وشخصيات ألف ليلة وليلة، وقصة «عنتر» وما فيها من فروسية وبطولة اهتم بها المورييسكيون وقلدوها، يضاف إلى ذلك أننا لو نظرنا إلى لغات الأوربيين الحالية نجد أن بها كلمات عربية دخلت إلى لغتهم وظل بعضها حتى الآن وعدل بعضها الآخر تعديلا طفيفا ومن هذه الكلمات القطن : Coton المسك Musk زعفران Suffron شراب Syrup، جرة Jar، ليمون Lemon، سكر Sugar وقد شاعت هذه المفردات وغيرها في الإنجليزية وبعض اللغات الأخرى^(٣).

(١) جورج يعقوب : أثر الشرق في الغرب ص ٨١.

(٢) لوبون : مرجع سابق ص ٤٥١.

(٣) لمعرفة المزيد من هذه الكلمات يمكن الرجوع إلى دوزي : معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية وانظر أيضا ملاحق هذه الدراسة .

إن تشرب الأوربيين في العصور الوسطى بموضوعات الأدب العربي كان يمثل أحد مظاهر الحركة الفكرية التي شملت تلك الفترة، خاصة وأن النظم الدينية الكنسية التي اتصفت بها العصور الوسطى كانت ضيقة، كما كانت اللاتينية تفتقر إلى قوة الإبداع مما جعل الناس يولون وجوههم شطر العالم الإسلامي الذي كان متفوقا في الآداب والعلوم وغيرها في ذلك الوقت .

لقد أشاد العديد من الباحثين والمستشرقين الأوربيين بأثر الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوروبية ومن هؤلاء نذكر الأب اليسوعي الإسباني «خوان أندريس» Andres Juan الذي نشر في أعوام ١٧٨٢-١٧٩٩ كتابا بالإيطالية في سبع مجلدات بعنوان "أصول كل الآداب وتطورها وأحوالها الراهنة" ثم أعاد نشره في روما بعد أن نقحه ووسعه بين سنتي ١٨٠٨ و ١٨١٧ فجاء في ثمانى مجلدات، وفي هذا الكتاب أكد المؤلف أن النهضة الأوروبية في كل ميادين العلوم والآداب والفنون قامت بفضل ما ورثته من حضارة العرب.

وفي هذا الكتاب أيضا أوضح الأب «أندريس» تأثير الشعر العربي الواضح في بواكير الشعر الغنائى الأوروبى^(١) كما أكد ذلك المستشرق «نيكل» Nykl الذى قدم فى عام ١٩٣٣ دراسة عن الشعر الغنائى قدم فيها المزيد من الحجج الدالة على تأثير الشعر العربى فى شعر التروبادور.

ومما سبق يتضح مدى تأثير الآداب الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة تأثرا بارزا بالآداب العربى، الذى يعشقه الأوروبيون لدرجة أن الصلة بينه وبين الآداب الأوروبية الحديثة لم تنقطع حتى اليوم فما زال هناك تواصل بين الأوروبيين وآداب اللغة العربية، وما زال اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب مستمرا على مر العصور والأجيال.

٢ - الفلسفة

كان أثر المسلمين في الفكر الفلسفى الأوروبى في العصور الوسطى كبيرا وكانت الأندلس من أكثر المراكز تأثيراً على الفكر الأوروبى الغربى حيث عرفت أوروبا فلاسفة الشرق عن طريقها. ومن المعروف أن روح البحث الدينى والفلسفى كانت شائعة في عصر الخلافة الإسلامية، فقد ازدهرت فيه مذاهب في الفلسفة وساهم فيها علماء المسلمين بقدر كبير، ومن المعروف أيضا أن المشرق الإسلامى

(١) الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية دراسة للدكتور سهرير القلماوى، بعنوان في الآداب ص ٣٨.

عرف نشاط كبار الفلاسفة الذين أخذوا في الاهتمام بفلاسفة اليونان وما سطره في كتبهم وبخاصة أرسطو، وأوصلوا هذا التراث بعد تنقيحه إلى أوروبا. وبمعنى آخر فإن ترجمة الأوروبيين للفكر الفلسفي العربي هي التي دفعتهم لدراسة الفلسفة اليونانية. وقد أكد ذلك «روجر بيكون» بقوله أن معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر في الغرب لضياع المحفوظات التي حوت هذه الفلسفة أو لندرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين الذين قاموا بنقل فلسفة «أرسطو» وشرحها وعرضها بشكل أكثر توضيحا. ويرجع العصر الذهبي لاهتمام العرب بالفلسفة اليونانية إلى عهد الخلافة العباسية خاصة في عصرى الرشيد والمأمون، فقد أسس الرشيد بيت الحكمة في بغداد، وجمع فيها الكتب المؤلفة والمترجمة، وجعلها مركزا لترجمة العديد من الكتب اليونانية والهندية، ثم توسع المأمون في هذه المدرسة والحق بها عددا كبيرا من أشهر علماء عصره، وأصبحت مركزا للترجمة والنسخ والمطالعة والتأليف. ومن هذه المدرسة برزت أسماء حنين بن إسحق (٨٠٩-٨٧٢) الذي قام بترجمة «المقولات» الفيزيكا والأفلاق لأرسطو إلى العربية. كذلك قام حنين بترجمة أعمال أفلاطون «الجمهورية» و«القوانين» إلى العربية أما ابنه إسحق فقد ترجم «الميتافيزيكا» إلى العربية وإلى جانب ذلك فقد قام «ابن سينا» (٩٨٠-١٠٣٧) الذي يعد إمام البحث الفلسفي في العالم الإسلامي ومن كبار ممثلي الفلسفة الأرسطية والذي أطلق عليه اسم الرئيس قام بتقديم شروح لأرسطو كانت بعيدة الأثر على العقل الأوربي. فقد نقل الغرب اللاتيني عن ابن سينا فكرته عن المقولات، كما درس كتبه وشرحها وعلق عليها.

ولقد كان لابن سينا مدرسة خاصة، وتتابع تلاميذه عليها جيلا بعد جيل، ومن خلالها استطاع «ابن سينا» أن ينفذ إلى الدراسات الكلامية والصوفية في وقت كان فيه البحث الفلسفي محظورا، ولابن سينا فلسفته الخاصة التي تتركز حول ثلاث مسائل وهي مسألة «الفيض» و«النفس الإنسانية» و«نظرية المعرفة الإشراقية» وما تتضمنه من نظرات خاصة بالنبوة والمعجزات والتصوف.

أما عن مؤلفاته فهي «كتاب الشفاء» ويحتوي على أربعة أقسام رئيسية وهي المنطق والطبيعات والرياضيات والإلهيات وقد ترجمت أجزاء منه إلى اللاتينية، وإلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة، وكتاب «النجاة» وهو مختصر لكتاب الشفاء وفيه يدرس ابن سينا المنطق والطبيعات والإلهيات، هناك شروح كثيرة لهذا الكتاب. وكتاب «الإشارات والتنبيهات» الذي يعد من أبرز كتب ابن سينا وقد قال عنه أحد تلاميذه أن «ابن سينا» كان قد خصصه لتلاميذه المقربين لا لغيرهم، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية، وكتاب «عيون الحكمة» وفيه دراسات في المنطق والطبيعات والإلهيات وقد نشره

الدكتور «عبد الرحمن بدوي» في عام ١٩٥٢، وكتاب «القانون» في الطب. ومن رسائله رسالة في الحدود، ورسالة في أقسام العلوم العقلية، ورسالة في أجوبة مسائل سأل عنها «أبو الريحان البيروني». أما «الفارابي» الذي عاصر الفترة التي التقت فيها الحضارة العربية الإسلامية الناشئة بالحضارة اليونانية فقد قام بشرح فلسفة أرسطو والتعليق عليها بشكل أعاد النظر فيها وأكمل ما نقص منها، لذلك كان شرحه في الغالب أكثر فهما من النص الأصلي وأكثر عقلانية وأقرب إلى الصديق منه. بمعنى أن غرض «الفارابي» من الشرح كان تحويل النص إلى نظرية خالصة في العقل. وبالتالي تزداد براهينه وتكثر حججه العقلية، ويصبح واضحا بذاته، كما يصبح حقيقة بعد أن كان رأيا. وبالتالي ظهرت نوعية الحضارتين في مادة البحث وأمثلته سواء اللغوية أو الأدبية أو الدينية، فظهرت اللغة العربية في مقابل اليونانية، والأدب العربي في مقابل الأدب اليوناني، والعلوم الإسلامية في مقابل العلوم اليونانية ومعنى ذلك أن الفارابي لم يكن شارح نص فحسب بل كان عاقل معان، فإذا كانت الألفاظ متباينة فإن المعنى واحد. فالفارابي لا يسير وراء أرسطو بل يعرض لموضوعاته ومعانيه، ويتعامل معها ككليات وماهيات مستقلة عن عباراتها وألفاظها ومصطلحاتها. لقد تعامل الفارابي مع أرسطو إما شارحا لكتاب كما هو الحال في «المقولات» وفي «العبارة» أو مبينا قصد كتاب آخر كما هو الحال في «الإبانة» عن غرض «أرسطو طاليس» في كتاب «ما بعد الطبيعة» أو توضيح علم معين أو فرع من علم مثل كتاب «القياس» أو الجدل أو عارضا مذهب أرسطو ككل بمقارنته مع غيره داخل الفلسفة اليونانية. ولا يكتفى الفارابي بنصوص أرسطو بل يذهب لتأويلاتها المختلفة لدى الشراح^(١).

وهكذا كان الفارابي من بين المفكرين العرب الذين كان لهم شأن كبير في ميدان الفلسفة خاصة وأنه استطاع التأكيد على وحدة العقل الإنساني وإمكانية التفاهم بين الشعوب. وإلى جانب ذلك لقد ضرب فلاسفة المسلمين في الأندلس الرقم القياسي في حرية الفكر وتركوا أبعد الأثر في الفكر الأوروبي وكان من هؤلاء «ابن باجه» و«ابن طفيل» و«ابن رشد»، ولما كان أكثر هؤلاء تأثيرا في غرب أوروبا هو «ابن رشد» بوصفه أكبر شارح لفلسفة أرسطو^(٢)، ومن أكبر علماء العرب الذين ترجمت كتبهم إلى اللاتينية ظلت أراؤه تدرس في جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر فإننا سنخصصه بالتفصيل.

(١) أبو النصر الفارابي في الذكري الألفية لوفاته ٩٥٠ ميلادية القاهرة، ص ٧٣-٧٤.

(٢) عاشور: مرجع سابق ص ٨٨-٨٩.

يعد أبو الوليد بن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) رائداً من رواد التنوير في العالم فقد عرفت أوروبا قدره قبل أن يعرف في بلدان العرب والمسلمين، خاصة وأنه أيقظ العقل من سباته العميق بما قدمه من روائع للفكر الإنساني، ومحاولاته جعل فكره ومؤلفاته كحلقة وصل في حوار الحضارات والثقافات والأديان. اشتغل ابن رشد في بداية أمره بالقضاء واهتم بالفقه واستفاد من دراسة الفلسفة اليونانية بصفة عامة، وفلسفة أرسطو ومنطقه بصفة خاصة. نادى في كتبه بوجوب الإقبال على علوم الآخرين، وحذر من كل دعوة لا تقوم على العقل، ولجأ إلى القياس والاجتهاد والتأويل والجدل سواء في المسائل الفقهية أو الأخلاقية أو في الفلسفة والمنطق.

ويعد «ابن رشد» الشارح الأول لكتب «أرسطو» في الطبائع والطبيعة والمنطق والنفس، وتمتاز شروحه المنطقية بعمق الفهم وحسن العرض، وقد ظلت أوروبا قراية الألف عام في العصور الوسطى لا تعرف شيئاً عن المعلم الأول أرسطو حتى ترجمت بحوث «ابن رشد» وشروحه لأرسطو عن العربية إلى اللاتينية، ولا يزال قدر من شروح ابن رشد في صورها المختلفة محفوظاً في اللغة اللاتينية دون أن يعثر أحد على أصوله العربية، ونستطيع أن نقرر أن «ابن رشد» عُرف في اللاتينية أكثر مما عرف في العربية وأحدث في الفكر الأوروبي إبان العصور الوسطى حركة ونشاطاً لا نظير لهما وامتد أثره إلى التاريخ الحديث، فقد استطاع الفيلسوف الفرنسي رينان (E. Renan) أن يصور ذلك تصويراً صادقاً، وإن كان قد أصدر أحكاماً متفاوتة عن ابن رشد في كتابه المشهور «ابن رشد والرشديون اللاتينيون» فأحياناً يقول أنه لم يقلد أحداً من سابقيه، وأحياناً يذكر أن فلسفته نسخة مكررة من ابن سينا. وعلى أي حال فإنه طوال ثلاثة قرون من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر ظل الرشديون يدرسون ويبحثون، وينشرون تعاليم أستاذهم، التي ساهمت في بزوغ عصر النهضة ومهدت لظهور تاريخ أوروبا الحديث لدرجة أن الكل يجمع على أن «ابن رشد» بجانب أنه الشارح الكبير لأرسطو والمعبر عن آرائه، فإن أهم ما يتميز به مذهب الفلسفي هو نظريته الخاصة بالتوفيق بين الدين والعقل.

وإلى جانب ذلك فهناك مستشرق آخر كان أكثر انصافاً لابن رشد وهو «بالاسيوس» Palacios الإسباني الذي أوضح أن توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤) الذي يقال أنه أكبر خصوم ابن رشد في العالم المسيحي أفاد من كتب ابن رشد فائدة كبيرة في تأليفه مذهب الدين الفلسفي، كذلك حدد «بالاسيوس» كيف أخذ «الأكويني» عن «ابن رشد» نظريته في التوفيق بين العقل والعقيدة، وعجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية ليست إلا مقابلاً لما كتبه ابن رشد في باب «فصل المقام فيما بين الحكمة

والشريعة". هذا وقد سلك كل منهما طريقاً واحداً في معالجة وجود الله ووحدته، وقد بلغ من تأثر توما الأكويني بفلسفة «ابن رشد» أن كتاب «الخلاصة» لتوما يحوى بعض أفكار إسلامية الأصل مما يؤكد أن الأثر الذى تركه «ابن رشد» فى عقلية الأوروبيين لم يكن مجرد شروح وتعليقات لكتاب أرسطو بل كان أكثر من ذلك^(١).

وهكذا أسهم الفيلسوف القرطبي «ابن رشد» فى تبني وإثراء حوار الحضارات، وفى أنها علاقة حوار وتواصل، وليست علاقة صراع وتصادم. لقد شاء ابن رشد بوعى واقتدار أن يدعم هذا الحوار ويوثقه ليعيد العلاقة بين الحضارتين العربية الإسلامية، واليونانية برواية علمية دقيقة وفهم صحيح لمواد الحوار تصحيحاً لما قد وقع من خلط، ويتضح ذلك من شخصية ابن رشد العلمية ومؤلفاته الخاصة، ومن شروحه وتعليقاته وتلخيصاته لأرسطو فقد اعتمد ابن رشد فى حوارهِ مع الحضارتين الغربية اليونانية، والعربية الإسلامية منهجية مميزة التزم فيها بلغة الحوار التى يجب أن تتسم بالتعقل والمنطق وأخلاقيات الحوار.

لقد أنزل ابن رشد العقل فى حواراته إلى المستوى الإنسانى بعد أن كان ابن سينا والفارابى وإخوان الصفا قد رفعوه إلى ما فوق ذلك، وكذلك وجد ابن رشد أنه لا تعارض بين الفكر الإنسانى الحر وبين الشريعة الإسلامية لذلك نادى باستخدام العقل فى البرهنة على الأمور الدينية، وحرص على إثبات إقامة الحضارة الإسلامية على العقل، وأن المجال يجب أن يكون مفتوحاً أمام كل دارس للوصول إلى الحقيقة، كما انتقد بعض آراء أرسطو خلال شروحه للفلسفة الأرسطية - مما جعل الكنيسة فى أوروبا ترى فى ذلك تهديداً لثوابتها، وجعلها تنقسم على نفسها فيما ذهب إليه ابن رشد، ورغم ذلك فقد تبني بعض مفكرى أوروبا من نواة عصر التنوير آراء ابن رشد الفلسفية وتمسكوا بها، وعلى الرغم من انتقاد ابن رشد لبعض آراء أرسطو فإنه كان شديد الإعجاب ببعض جوانبها لذلك فإنه عهداها بالشرح والتفسير والتلخيص مبرزاً الجوانب المهمة فيها، ساعياً إلى تقديمها بصورة مبسطة واضحة ليسهل فهمها لذلك حظيت هذه الشروح بشهرة واسعة فاقت شهرته فى المجالات الأخرى التى عرفه بها الغرب مثل الطب خاصة وأن ابن رشد كان قد أعلى من دور العقل وجعله معياراً للمعرفة الصحيحة حتى يمكن تخطي ظلمات الجهل والتقليد إلى نور المعرفة والتقدم.

(١) القوصى : الحضارة الإسلامية ص ٣٠٥.

أما كتبه الخاصة فأكثرها شهرة كتاب «تهافت التهافت» وكتاب «الكشف عن مناهج الأدلة» وكتاب «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» وكتاب «في الفحص عن الاتصال بالعقل الفعال» و«رسالة في العلم القديم» و«كتاب التحصيل» وفيه جمع اختلاف أهل العلم من الصحابة والتابعين وتابعيهم و«كتاب المقدمات في الفقه» و«كتاب نهاية المجتهد» وكتب ومقالات أخرى في الطب والمنطق.

وهذه الكتب تم نقلها إلى اللاتينية بعد أن عهد رئيس كنيسة طليطلة إلى جماعة الدومينيكان بتعلم اللغة العربية، وينقل الكتب الإسلامية وعلى رأسها كتب «ابن رشد» إلى اللاتينية، وإذا كان لأثار ابن رشد نتائج مختلفة في العالم الأوربي لدى كل من رجال الكهنوت والمفكرين الأحرار الذين عارضوا الكنيسة بفلسفة أرسطو التي شرحها ابن رشد، وسموا أنفسهم بالرشديين اللاتينيين فإن نظرة المثقفين الأوربيين لابن رشد، منذ النصف الثاني من القرن العشرين بدأت تتخذ صيغة أكثر إنصافاً وأكثر ميلاً إلى محاولة فهم وجهات نظر الآخرين، وذلك شيء مثمر في مجال الفكر الإنساني.

وهكذا كانت الفلسفة الرشدية من التيارات الفلسفية التي أدت دوراً في صياغة فلسفة الفكر الإنساني، وفي إثارة الجدل بين التنوير وأعداء التنوير لدرجة يمكن معها القول بأن فلسفة ابن رشد كانت إحدى جذور التنوير الأوربي، وأن هذا الفيلسوف كان المصدر الأول للتنوير العقلي في عصر النهضة في أوروبا، فقد أضاف إلى مذهبه العقلاني اتجاهاً نقدياً فرض على فلاسفة الغرب الاعتراف به. فقد واجه «ابن رشد السياسة» لأول مرة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي بخطاب سياسي صريح يتضمن نقداً لاذعاً للنظم السياسية والاجتماعية، كشف فيه الاعتداءات الصارخة على حقوق الإنسان في الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ودافع عن المرأة وأعلى من قيمتها موضحاً أنها لم تخلق للولادة وإرضاع الأولاد بل لديها القوة الكامنة التي تمكنها من القيام بأعمال عظيمة. إن العالم الآن في أمس الحاجة إلى الاستفادة من دعوة ابن رشد إلى الانفتاح على أفكار الأمم الأخرى، وعلى الاستزادة من المعرفة العالمية وهكذا كان ابن رشد أبرز فيلسوف عرفته الثقافة العربية الإسلامية، وأحد الواضعين لفلسفة التنوير في الفكر الغربي اللاتيني، ولعل في ذلك أكبر رد على فكرة صراع الحضارات التي تطلقها بعض أبواق الغرب في الوقت الحالي فالفكر الإنساني التنويري الحضاري العقلي يقوم دائماً على الحوار وليس الصراع. فقد انتفضى الزمن الذي كانت تفصل فيه الثقافات العالمية الكبرى بعضها عن بعض، وتقام بينها حواجز منيعة لا تسمح باتصال أو تبادل وأصبحنا نؤمن بأن الحضارات القديمة أخذت وأعطت، كما يجب أن تعطى الحضارة الحديثة بمقدار ما أخذت.

٣ - الجغرافيا

لا شك في أن اتساع الدولة الإسلامية وامتدادها على مساحات فسيحة في قارتي آسيا وأفريقيا حثّم على المسلمين ضرورة الوقوف على أحوال البلاد المفتوحة ومعرفة الطرق التي تربط بين أجزاء هذه الدولة الفسيحة والمسافات بين الأقطار بعضها البعض، مما يتطلب وصفا دقيقا للامكنة والبقاع وتفصيلا وافيا لأحوال شتى الأقطار وما تنتجه من غلات.

ولما كانت رغبة العرب في المعرفة جاسحة، فقد أدى ذلك إلى وقوفهم على التراث الثقافى للحضارتين اليونانية والرومانية ورغبتهم في بناء حضارة عالمية لم تكف بالحدود المحلية، فأخذوا في نقل كنوز المعرفة القديمة من الغرب والشرق ثم أضافوا إلى هذه العلوم ما أدى إلى المساهمة في التقدم الإنسانى، فكانت كتاباتهم من الأسس التي استمدت منها النهضة الأوربية مقوماتها، وكانت أبحاثهم وأراؤهم منارة إهتدى بها علماء أوروبا فنقلوا عنها كل ما ساعدهم على إثبات حقيقة أو تكوين نظرية. ونتيجة لذلك أجمع العلماء على أن الحضارة العربية الإسلامية تحتل مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرى التي ظهرت في تاريخ البشرية . وقد ظهر بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ أضافوا إلى علم الجغرافيا الجديد، وذلك عن طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات والمقارنة بينها، وكان من هؤلاء «اليعقوبى» و«المقدسى»، و«ياقوت»، و«المسعودى» و«الإدريسى» وغيرهم.

لقد كان «اليعقوبى» من أوائل الجغرافيين المسلمين الذى تطرق بكثير من الوضوح إلى الجغرافيا، وجعل لها مفهوما كبيرا، فذكر أسماء المدن والممالك، وتكلم عن مكانها، وأوضح المسافات بينها كما ذكر الأوصاف الطبيعية لتلك المناطق وربّنها إلى سهول وجبال، وتعرض لطبيعة مناخها.

وكان «شمس الدين المقدسى» من أوائل الذين اعتبروا الجغرافيا علما لا بد من معرفته للتاجر والمسافر والملوك والكبراء والقضاة والفقهاء وغيرهم. وكتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» يقف فيه فى قمة سلسلة من المؤلفات الجغرافية العربية تعرف بأطلس الإسلام لأنها مؤلفات قامت على خرائط، وفيه وصف بلاد العرب، كما تحدث فيه عن معظم بلاد الإسلام التى زارها وبدأ بالحديث عن كل إقليم بجغرافيته الطبيعية ثم تبعها بالجغرافية البشرية وانتهى بالكلام عن النظام الإدارى ثم الناس، وأحوالهم وملابسهم ومأكلاتهم ومشاريهم.

ومدخل كتابه «أحسن التقاسيم» تعد قطعة من الأدب الجغرافي ترجمها إلى الإنجليزية «كريم» في عام ١٨٧٧ وإلى الإيطالية «ناليو» (١٨٩٥) وإلى الفرنسية جان سوفاجيه (١٩٤٦) .

وفي الحقيقة أن كتاب «أحسن التقاسيم» يعد تقريراً عن المعمورة كما رآها المقدسي، والذي تحمل العديد من المشاق وتعرض للكثير من الأخطار ليكتبها، إن مثل هذا الرجل كما ذكر البعض «جوهرة تزين تاريخ حضارة البشر»^(١). قال عنه المستشرق «شبرنجر» أنه أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة، وقال فيه المستشرق «كرامرز» إنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة، وأنه كان الأستاذ الذي علم أوربا فن الجغرافيا.

وبالنسبة لموسوعة ياقوت الجغرافية (١١٧٩-١٢٢٩م) (معجم البلدان) فقد احتوت على جميع معارف العصور الوسطى عن الكرة الأرضية إذ أوضح فيها كل ما يتعلق بعلم الفلك والعلوم الطبيعية والتاريخ وغيره.

وحول موسوعة المسعودي (مروج الذهب ومعادن الجوهر) فهي تعد كتاباً في الحضارة العالمية في العصور الوسطى كما أنها تدل على دقة الكاتب وموسوعيته فهو رحالة جغرافي، ومؤرخ حضارة، وعالم طبيعة، ونبات، وحيوان. وقد قدم المسعودي هذا الكتاب بالحديث عن هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وجبالها وأنهارها وبيدائع معادنها، وجزائر البحار والبحيرات فيها وأخبار الأبنية العظيمة وخلافه، كما وضع خريطة امتازت بتحديد كل من البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر أورال وأنهار النيل والسند والكانج. ثم انتقل المسعودي في هذا الكتاب إلى أخبار كل شعوب الدنيا وكل الرسل والأنبياء، فتحدث عن الديانات الوثنية ومذاهبها وتطرق إلى أخبار المصريين والبابليين والآشوريين والعبرانيين واليونان والرومان ثم دخل بعد ذلك في تاريخ الإسلام حتى وصل إلى عصر الخليفة العباسي الثالث والعشرون وهو المقتدر.

أما أهم جغرافى المسلمين وأكثرهم أثراً فكان الشريف عبد الله الإدريسي (١١٦٦/١٠٩٩) صاحب الدور الأكبر في تجديد هذا العلم والعناية به لدرجة أن لقبه البعض بأنه كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوروبا هذا العلم وليس بطليموس. قام الإدريسي برحلات متعددة للعديد من بلدان العالم فزار مراکش، والبرتغال، وإسبانيا، واليونان، وفرنسا، وإيطاليا، ومصر، وآسيا الصغرى. ثم استقر بصقلية حيث استبقاه حاكمها النورمانى الملك «روجر الثانى» الذى كان شديد الإعجاب بعلمه

(١) حسين مؤنس : تاريخ موجز للفكر العربى ص ١٢٧.

الإسلام وأدابه وكلفه بوضع خريطة تمثل الكرة الأرضية وهذا دليل ساطع على أن «روجر» كان يعرف للعلماء العرب قدرهم. وهناك ألف الإدريسي كتابه «نزهة المشتاق في ذكر الامصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والأفاق» وفيه تمسك بفكرة كروية الأرض كما وصف فيه مدن العالم المعروفة في ذلك الوقت وصفا دقيقا. وهذا الكتاب يعد أكمل بحث جغرافي ورثته أوروبا عن العرب. وإلى جانب ذلك فإن خرائطه التي تزيد على الأربعين تعد من القمم التي بلغها فن رسم الخرائط في العصور الوسطى^(١) وهذه الخرائط محفوظة حاليا ببعض المتاحف الأوروبية ومنها خريطة محفوظة بمتحف «سان مارتان» الفرنسي ترسم النيل أتيا من بحيرات جنوب خط الاستواء بعد أن تخطب الجغرافيون في وصف منابعه وتعليل فيضانه.

ومن الخرائط التي رسمها الإدريسي والآراء التي أخذت عن العرب تلقى كولبس صورته عن الكرة الأرضية وتمثيل الأرض كشجرة الكمثرى المستطيلة. وكانت الخريطة التي أوجت له هذه الفكرة هي خريطة الكاردينال «بطرس الإيلي» التي سماها خريطة الدنيا وأعتمد فيها على المصادر العربية. ونشرها قبل كولبس بنحو ثمانين عاما. وهي إضافة تحسب للجغرافيين العرب في اكتشاف أمريكا، فلو لم يتمسك العرب بنظرية كروية الأرض ربما ما كان ليخطر ببال رحالة مثل «كريستوف كولبس» أن يكشف عن الدنيا الجديدة، فالعرب لهم جليل الأثر في الكشف عن نصف الكرة الغربي لما أشاعوا من نظريات مدعمة بالأدلة والبراهين حول كروية الأرض. وإلى جانب ذلك قام الإدريسي برسم خريطة للأرض على لوحة كبيرة، ثم قام بعملية حسابية معقدة لكي يستطيع نقل خريطة الأرض هذه على كرة من الفضة الخالصة. كان قد أعد لها روجر الثاني. وعلى هذه الكرة وضع المواقع. ورسم القارات والبحار والأنهار بغاية الدقة. كما كشف الحقيقة عن منابع النيل العليا. وبعد أن أتم ذلك شرع في تحويل هذه الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة. وقد قسم الإدريسي بعد ذلك هذه الخريطة المسطحة إلى سبعة أقسام مستعرضه فوق خط الاستواء وقسمين جنوبيه وتلك هي الأقاليم السبعة المشهورة في النصف الشمالي من كرة الأرض وأصلها عند بطليموس ثم قسم هذه الخريطة إلى عشرة أقسام طولية بخطوط رأسية متوازية هي خطوط الطول. وبذلك حصل على سبعين قسما مربعا. فأخذ كل قسم ورسمه رسما مفصلا مكبرا يصفه بكل ما فيه من معالم الجغرافية الطبيعية والبشرية. ويدون الوصف في كتابه «نزهة المشتاق» وهو يأخذ الأقاليم إقليما إقليما. وفي كل إقليم يصف كل واحد من أجزائه على حدة.

ونتيجة لذلك عرفت أوروبا مكانة الإدريسي واعتبروه مفخرة من مفاخر الإنسانية فنشروا كتاباته نشرا علميا دقيقا خاصة وأنها تتسم بالدقة والأمانة العلمية الفائقة. وإلى جانب هؤلاء، فهناك الملاح العربي «شهاب الدين أحمد بن ماجد» الذي يعد أقدم من ألف في علوم البحار فقد كتب فيها ثلاثين كتابا أهمها «كتاب الفوائد» الذي نشره المستشرق الفرنسي «جيرانييل فيران» (١٩٢١-١٩٢٣) وقد ضم هذا الكتاب معظم المعلومات النظرية والعلمية التي تهتم الملاحين في البحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر الصين، وقد جمع فيه خبراته الواسعة التي اكتسبها عن هذه البحار وأعماقها وجزرها وموانئها، والرياح التي تهب عليها^(١).

ومن المعروف أن الذي ساعد العرب على القيام برحلاتهم العلمية والتجارية هو معرفتهم بالإبرة المغناطيسية، والبوصلة واستخدامها في أسفارهم، هذا بالإضافة إلى معرفتهم بالنجوم ومطالعتها ومغاريبها واستخدام مجموعاتهما في التعرف على الاتجاهات في عرض البحار. وهكذا كانت جهود علماء العرب في الجغرافيا خير دليل على تطوير هذا العلم فقد تحدثوا عن كروية الأرض رغم أن الكنيسة كانت تقول بتسطيحها وتعتبر أن كروية الأرض من المسائل التي لا يمكن التسليم بها^(٢) وقام بعض علماء العرب بمحاولة استطلاع المحيط الأطلسي الذي كان يطلق عليه بحر الظلمات، كذلك فإن الأوربيين تعرفوا على البوصلة عن طريق الأندلس بعد أن نقل اليهود أسرارها إليهم، وعلموهم طريقة استعمالها، وعلى الرغم من تقادم الزمن فقد احتفظت البوصلة باسمها العربي في بعض اللغات الأوروبية فهي بالفرنسية Boussole وبالإيطالية Bossala.

وهكذا أثرى العلماء العرب التراث الإنساني بما تركوه من كتابات تدل على بحث دقيق، وما اخترعوه من أجهزة وما وضعوه من خرائط ساعدت المستكشفين فيما بعد على أن يطوفوا بالعالم وأن يرتادوا المجهول في أراضيه، لقد تمثل أول فضل للعرب على الحضارة الغربية في صيانتهم لأسس هذه الحضارة، ولو لم يهتم العرب بنقل علوم اليونان لانقطعت الصلة بين ماضي أوروبا وحاضرها خاصة وأن روح البحث العلمي في أوروبا عند ظهور الإسلام كانت قد إنعدمت لفشل علماء الإغريق في اكتساب رضاء علماء المسيحية في عصورها الأولى، فقام العرب بربط العلم القديم بالعلم الحديث وأضافوا إليه ثم نقلوا ذلك إلى أوروبا ليساهم في بناء عصر النهضة، لذلك استمر الرحالة الأوروبيون يعتمدون إلى حد كبير على المصادر الإسلامية في ارتياد ما كان مجهولا لديهم من أرجاء الأرض،

(١) د. محمد الصياد : أثر العرب والمسلمين في النهضة الأوروبية في الجغرافيا ص ٢٩٣ .

(٢) Sarton : Introduction to the History of Science vol II, p.46.

ويبدو ذلك واضحاً عند «ماركو بولو» الذي تحدث عن المعلومات التي استقاها من رسوم المسلمين البحرية في سيلان.

كما يبدو خلال رحلات البرتغاليين لاكتشاف الهند، فلولا إرشاد الملاح العربي «أحمد بن ماجد» لفاسكودي جاما لصلت رحلته إلى الهند وفشلت جهوده الكشفية، يضاف إلى ذلك أن تفوق العرب في فن الخرائط قد ساعد الرحالة الأوروبيين على تحديد مساراتهم، كما أن تمسك العرب بكرة الأرض ساعد كولمبس على التعرف على أن الاتجاه إلى الغرب يمكن أن يؤدي به إلى الهند.

٤- التاريخ

التاريخ علم من أهم العلوم الإنسانية وأعلاها قدراً، وأكثرها فائدة وهو كنشاة إجتماعى وسياسى واقتصادى بدأ مع بداية وجود المجتمعات البشرية حيث أنه يلبي حاجات هذه المجتمعات إلى معرفة ذاتها وما يدور حولها، فهو يتناول الجنس البشرى بكل ما انطوى عليه من التعقيد والتنوع، ويتيح له معينا لا ينضب من التجارب العلمية التي قد تعينه على الاستنباط، وتغنيه عن أن يمارس بنفسه مثل تلك التجارب من أولها إلى آخرها. وكان من الطبيعى أن ينال علم التاريخ نصيبه من الاهتمام والازدهار الذى ميز حركة الثقافة الإسلامية . ففي القرن التاسع والعاشر الميلاديين أدى المؤرخون المسلمون دورهم فى الربط بين أجيال الأمة الإسلامية وشعوبها ودورهم الذى ينبغي أن يكون لهم فى تاريخ البشرية، وفى كتابة تاريخ العالم منذ أن خلق الله آدم وحواء، وما تلى ذلك من تاريخ الأنبياء والرسل. وقد ساعدهم على ذلك فكرة وحدة العالم الإسلامى وما صحبه من حرية التنقل بين أرجائه سعياً وراء المعرفة. وتكشف كتابات «اليعقوبى» صاحب «كتاب البلدان» عن فكرة التاريخ العالمى التى سيطرت على مؤرخى ذلك العصر. كما أن كتاب «تاريخ الرسل والملوك» لمحمد بن جرير الطبرى» يجسد النزعة العامة التى أوجدتها وحدة العالم الإسلامى. أما كتاب «فتوح البلدان» للبلاذرى» فإنه يكشف عن عظمة الفتوحات الإسلامية وكيفية استجابة العديد من الشعوب للإسلام. وبالنسبة لكتاب «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير» فإنه صوّر نظرة أساسية فى مفهوم التاريخ عند المسلمين وهى تقول أن تاريخ العالم ينقسم فى جملته إلى ثلاثة عصور تبدأ بالتاريخ القديم ثم السيرة النبوية فتاريخ العالم منذ وفاة الرسول إلى آخر الزمان. وبالنسبة لكتاب «المختصر فى تاريخ البشر» لأبى الفدا» فهو كتاب فى تاريخ العالم وإن كان يميل إلى التركيز على أحداث بلاد الشام وعصر المماليك، والمغول. وحول كتاب المسعودى «مروج الذهب» فقد عرض فيه تاريخ غرب اسيا وشمال أفريقيا وشرق أوروبا.

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) صاحب المقدمة فهو علم من قمم التاريخ، وصاحب المكانة الكبرى في إخراج علم التاريخ من السرد إلى التفلسف الذي يقف على الدوافع المحركة لتاريخ البشر، حيث يضع تصورات حول ما يسمى بدورة العمران، أي تطور الجماعات البشرية من البداوة إلى الحضارة، والبداوة عنده هي الحياة البدائية البسيطة التي تتمثل في البدو والفلاحين الذين يتكاثرون ويتجمعون حتى يتمكنوا من السيطرة على قواعد العمران وإنشاء الدول، والدخول في طور الحضارة والاستقرار والملك، ورعاية العيش ويعتمدون على الجند المرتزقة ثم تبدأ دورتهم في التدهور والضعف نتيجة لحياة الترف والبعد عن خشونة العيش وصراع الحياة التي كانوا يعيشونها . ومن يقرأ كتابه "العبر" يشعر أنه يقرأ تاريخاً علمياً للعصور القديمة فهو يعرف اليونانيين معرفة واضحة ويفرق بينهم وبين المقدونيين، وهو يعرف أوليات تاريخ الرومان ويتتبع تطور دولتهم من عصر الملوك إلى الجمهورية إلى الإمبراطورية . كما يشعر قارئ هذا الكتاب أنه يقرأ كتاباً في التاريخ والجغرافيا والاجتماع معا، فهو لا يضع نظريات بل يؤرخ ويدرس ويحلل ويعلل الحوادث وأسباب قيام الأمم وعلل سقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك ويعطينا صورة واضحة للممالك القديمة والمعاصرة مما دفع أحد الباحثين الأوروبيين إلى القول بأن مقدمة ابن خلدون هي أساس التاريخ وحجر الزاوية فيه، ففيها تحليل مسهب وموضوعي للعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تفعل فعلها في تكوين الوحدات السياسية وفي تطور الدول، وقد تمثلت نتائج هذا التحليل في العلم الجديد الذي أوجده ابن خلدون (١) . لقد أتت مقدمة ابن خلدون وهي مقدمة كتابه الكبير في التاريخ بفكرة أصيلة ورأي غير مسبوق وهو إنشاؤه لعلم العمران أو علم الاجتماع، ونظريته في فلسفة التاريخ التي تعد من أقدم النظريات في هذا المجال، والتي حاول فيها إبراز الأسباب التي تدفع المؤرخين إلى الخطأ في التاريخ والتي كان من أهمها الجهل بطبيعة النظم الاجتماعية والقواعد التي تخضع لها هذه النظم، ومن هنا رأى ضرورة تخصيص علم لدراسة العمران أو الاجتماع لكي يدرسه المؤرخ قبل أن يبدأ تاريخه، وهو هنا يشبه «أوجست كونت» مؤسس علم الاجتماع عند الأوروبيين، وعلى حين يتخذ «ابن خلدون» علم الاجتماع وسيلة لتصحيح التاريخ يتخذ «مونتسكيو» الفيلسوف الفرنسي من التاريخ أساساً لبناء علم الاجتماع.

(١) هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام، بيروت دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص ٢٢١ وانظر أيضاً : عبد الحميد العبادي : علم التاريخ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٦٤-٦٥ .

والجدير بالذكر أن المؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى لم يهتموا كثيراً بدراسة تاريخ المسلمين إلا متأخراً، فقد بدأت عنايتهم به عندما بدأت حركة الاسترداد في إسبانيا وعندما استعيدت صقلية واستولى عليها النورمان، ثم ازدادت معرفة الأوروبيين بتاريخ العرب والمسلمين عندما بدأت الحملة الصليبية الأولى^(١). وبدأت حركة الاحتكاك المسلح بين الشرق والغرب كما أن حركة التدوين التاريخي في الشرق الإسلامي تأثرت أيضاً بقيام هذه الحروب، فقد أدى التطور الذي حدث في هذا المجال إلى التركيز على صفات البطولة العسكرية وكان ذلك استجابة للتحدي الذي فرضته الحروب الصليبية على الشرق الإسلامي باعتبارها عدواناً استعماريّاً، ومن هنا تعلق الانظار ببطل يلبي حاجات الأمة، ومن ثم جاءت الكتابات التاريخية في هذا الصدد، واهتم المؤرخون بسيرة هؤلاء لاسيما صلاح الدين الذي نجح في استرداد بيت المقدس من الصليبيين، ومن هذه المؤلفات كتاب "المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية" الذي يدور حول شخصية صلاح الدين ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، كما يتعرض لأحداث الحروب الصليبية في حياته^(٢). كما ظهر من مؤرخي الغرب من الصليبيين "وليم الصوري" الذي يعد من أوائل هؤلاء المؤرخين الذين تأثروا بالدراسات التاريخية العربية، ومن أوائل من عرفوا المجتمع الأوروبي بالإسلام ودوله وشعوبه وحكامه وتاريخه^(٣). وفي أعقاب ذلك أخذت حركة الاستشراق في أوروبا تنمو ناحية العناية بدراسة علم التاريخ كأساس للتعلم في الدراسات العربية بصفة عامة، ومن ثم أخذ المستشرقون يهتمون بمعرفة تاريخ العرب والإسلام على حقيقته بالرجوع إلى ما كتبه العرب أنفسهم، وبحقيق النصوص التاريخية الأصلية وترجمتها وطبعها إلى أن انتهى بهم الأمر بعد ذلك إلى التأليف في تاريخ العرب والإسلام اعتماداً على المراجع العربية الأصلية. وبهذا دخلت حركة الاستشراق في مرحلة جديدة في دراسة أصول الحضارة العربية^(٤).

وخلاصة القول أن المسلمين تركوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية هائلة يستطيع أن يتدارك منها ما فات غيرهم، كما أن العلم الحديث يسجل لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإنسناد والتوقيت الكامل، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخي، ونوعوا التأليف فيه وأكثره إلى درجة لم يلحق بهم فيها

(١) جمال الشبال ومختار العبادي : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية (في التاريخ) كتاب اليونسكو ص ٣٣١ .

(٢) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين القاهرة، دار المعارف ١٩٨٢ ص ٩٤-٩٥ .

(٣) عن ترجمة وليم الصوري ومؤلفاته التاريخية يمكن الرجوع إلى السيد الباز العريني : مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٢ ص ٩٩-١٥٢ .

(٤) الشبال والعبادي : بحث سبق ذكره ص ٣٦٨ .

من تقدمهم أو عاصروهم من مؤرخي الأمم الأخرى، وأنهم أول من كتب في فلسفة التاريخ والاجتماع، وتاريخ التاريخ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم في التمسك بأن واجب المؤرخ هو الصدق في القول، والنزاهة في الحكم، وعرض الحقائق بموضوعية ودقه^(١).

٥ - الفنون والعمارة

وعن أثر الفنون الإسلامية في الحضارة الأوروبية، فمن الواضح أن العرب استفادوا من فنون وحضارة البلدان التي فتحوها خاصة بلاد الفرس والروم، ثم نقلوها إلى أوروبا بعد أن وضعوا لمساتهم عليها، وأضافوا إليها مبتكراتهم مما كان له أثره في الذوق الأوربي، فقد بدأ الفن الإسلامي أولى خطواته متأثراً بالنماذج التي وجدها في البلاد المفتوحة، ثم تطور بعد ذلك ليعبر عن نظرة الإنسان المسلم للكون والحياة، فتميزت بمدى إدراكه لإبداع الله تعالى، كما تميزت بشخصيتها الإسلامية وروح الإسلام، وكانت المساجد هي أول المنشآت التي اهتم المسلمون ببنائها وزخرفتها وإعدادها إعداداً رائعاً، ومن هنا برزت نواة الفن الإسلامي المثلثة في تحريم الصور والرسومات والتماثيل داخل المساجد، والاعتصار على تزيين المسجد بالآيات القرآنية وتزيين الأسقف والأعمدة بالرسوم الهندسية والثريات. هذا عن دور العبادة، أما عن القصور والمنشآت الاجتماعية والتجارية العامة التي عرفها العالم الإسلامي، فقد نجح الفنانون المسلمون في المزج بين الفن الشرقي والفن الغربي في وحدة جديدة وأعطوا ذلك المزيج الذي جاء نتاجاً للترابط والاختيار طابعاً خاصاً بهم، ومن ثم فإن هذا الفن يدين بميلاده إلى الذوق العربي وإن كان قد تأثر بما قدمته حضارة البلدان المفتوحة خاصة الفرس والبيزنطيين.

لقد شملت الفنون الإسلامية كافة أنواع الفنون من تصوير ورسم وزخرفة وعمارة وموسيقى، ففي مجال التصوير أي رسم الإنسان والحيوان فبالرغم من أن بعض علماء المسلمين الأولين اعتبروه مكروهاً إلا أنهم لم يفتوا بتحريمه، فظهرت التصاوير في البلاد التي استقرت فيها أمور الدولة الإسلامية واتسعت في العصرين الأموي والعباسي حيث وجدت صور آدمية متقنة على جدران قصور بعض الخلفاء التي اكتشفت آثارها في شرق الأردن وسامراء.

(٢) العبادي : علم التاريخ - ص ٦٩ .

وفى مجال الزخرفة، فقد حوت جدران الجامع الأموى بدمشق، وقبة الصخرة بالقدس والمسجد النبوى بالمدينة بعض الزخارف بالفسيفساء، وأكثرها زخارف نباتية جميلة تبعث فى النفس الهدوء والراحة وانسراح الصدر، كما زينت بعض قصور السلاطين بالصور والرسومات التى وصفت بأنها لغة الفن الإسلامى.

وفى العصر العباسى انتشر فن الرسم والتصوير وصناعة التماثيل وبلغ ذروته فى قصور الخلفاء العباسيين، وظل يتابع تقدمه فى روعة لا مثيل لها.

أما عن العصر الفاطمى فقد تطور فن الرسم والتصوير تطورا كبيرا.

وبالنسبة للاندلس فقد برزت الصور الملونة التى ازدانت بها أسقف القصور فكان سقف قصر الملك فى قصر الحمراء، به صور تمثل فرسان العرب، وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم العربية وسدد بعضهم الآخر رماحه إلى صدور أعدائه، كما كانت به صور تمثل حسان العرب، وحيوانات مختلفة، وأشجارا ونباتات متنوعة مما يؤكد وجود بصمات الفنان العربى المسلم على هذه الرسومات. وعلى الرغم من إنكار بعض الأوربيين قيام العرب بابتداع هذه التحف الفنية، فإنه من المؤكد أن يدا عربية هى التى رسمت تلك الصور التى تعبر عن الفروسية والشهامة العربية والدليل على ذلك أن ألوان تلك الصور، وأساليب رسمها عربية صميعة، وأن العربى وحده هو الذى كان يرسم الفرسان العرب وهم يصارعون أعداءهم، يضاف إلى ذلك أنه توجد تحفة فنية فى متحف اللوفر تدل على مبلغ ما وصل إليه العرب من مستوى رفيع فى فن الحفر، وهذه التحفة التى عثر عليها الإسبان فى قرطبة والتى يدل تاريخها على أنها صنعت سنة ٩٦٨م عبارة عن لوحة خشبية أسطوانية حفرت على جدرانها صور نساء يعزف بعضهن على العود وتغنى الأخريات، وصور غزلان ونمر وفهود^(١).

ومن ثم اقتبس رسامو أوروبا فكرة تزيين أسقف الكنائس والقصور بالصور الملونة، واتخذوا منها نقطة انطلاق للتجديد الفنى الذى حققوه فيما بعد. لقد وجد الفن الإسلامى فى تكوين الزخارف من النباتات والكتابات والأشكال الهندسية تعبيرا جديدا عن روحه الحقيقية، وعن ميله إلى مزج الأشياء المادية بالمعنوية. فحوّل المسلمون النبات إلى عنصر هندسى والكتابة إلى زخرفة نباتية، واستعانوا فى ذلك بأبرع العمليات الحسابية حتى توصلوا إلى تشكيل ذلك اللون من الزخرفة والتى أطلق عليها الأوروبيون اسم أرابيسك بالفرنسية Arabesque وبالإسبانية Ataurique أى التوريق، وقد عرف الإنسان المسلم ما يعرف الآن باسم الفن التجريدى لأنه كثيرا ما يأخذ الوحدة الزخرفية النباتية

(١) محمد مفيد الشويشى : العرب والحضارة الأوروبية نقلا عن كتاب الشعراء التروبادور .

كالزهرة ويجريدها من شكلها حتى لا تعطى إحساساً بالذبول والفناء فيحوورها في أشكال هندسية تعطى الشعور بالدوام والبقاء. وقد استعان الفن الإسلامي بالعمليات الحسابية في كل الآثار التي تمخضت عنها ملكات المسلمين الفنية فنلاحظ أن المحراب مثلاً الذي نالت زخارفه قدراً كبيراً من العناية كيف تطور خطاه المتوازيان في عقود الواجهة الخارجية إلى أن أصبحا محيطين لدائرتين يقع مركز أحدهما فوق الآخر كذلك نال جزء آخر من المئذنة عناية خاصة . إذ أعمل فيها الذهن الإسلامي خياله وأجهد نفسه في الحساب حتى جعل منها طابعاً مميزاً للفن المغربي، فاحتفظت المآذن المغربية كلها تقريباً بطابعها المربع الشكل، ولا يزال يرى في أعلاها ذلك البرج الصغير المخروطي القائم على قاعدة المئذنة المربعة. لقد أعطى الفن المغربي أحسن النماذج عن عظمة الزخارف الخارجية والداخلية الإسلامية. ويتجلى هذا الفن في أعمال الفسيفساء الملونة، وتناسق نماذجها الرائعة. ومن الملاحظ أنه في مجال استخدام الكائنات الحية كان الفنان المسلم ينحون نحواً زخرفياً بعيداً عن محاكاة الطبيعة، كما أنه استخدم رسم الكائنات الخرافية، وساعده خياله الخصب على ابتكار أشكال كثيرة مثل الفرس ذو الوجه الأدمى، أو الصقور ذات الوجوه الأدمية الذي أطلق عليه اسم البراق . وقد وجد الفنان المسلم في ذلك متنفساً له يبتعد فيه عن محاكاة الطبيعة وتصوير المخلوقات البشرية والحيوانية التي يحرم تصويرها بعض العلماء. وقد أنتج الصانع المسلم أواني معدنية على أشكال حيوانية وهي إما للوضوء أو مباخر قد امتلات أسطحها تماماً بالرسم الزخرفية التي تحمل الكثير من الآيات القرآنية وعبارات الدعاء. يضاف إلى ذلك أن الخط العربي استخدم كعنصر زخرفي حيث وجد الفنانون المسلمون في الحروف العربية أساساً لزخارف جميلة زينت بها العماير، وأقبل المسلمون على اقتناء نماذج الجميلة خاصة وأنه صالح للزينة بطبيعته، وقابل للانسجام مع النقوش العربية، فهناك الخط الكوفي الذي يستعمل في كتابة المصاحف والنقش على العملة وعلى المساجد وشواهد القبور، وهناك خط النسخ الذي استعمل في نسخ الكتب والتدوين . وقد أشار الباحثون إلى أمثلة لكتابات عربية أعجب الأوروبيون بفنها الزخرفي ونقلوها دون معرفة المكتوب عليها لتزيين أسقف القصور والكنائس رغم أنها كانت ذات مسحة إسلامية بحتة. وبالنسبة للفن العمراني فقد اهتم العباسيون بهذا الفن اهتماماً كبيراً، فبنى «أبو جعفر المنصور» على نهر دجلة عاصمته بغداد على شكل دائري مما يعد ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي، هذا إلى جانب المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور فخمة . وقد اقتبست أوروبا فنون عمارتها من العرب، ويتجلى ذلك في تأثير العرب المعماري في إسبانيا وفرنسا. ففي شمال

فرنسا نقلت عقود زخرفة بوابة عن بوابة الفتوح في القاهرة، وفي إسبانيا تأثرت العمارة هناك تأثرا بالغاً بالتقاليد العمرانية الإسلامية وكانت أولى المناطق التي ظهرت فيها قوة هذا التأثير هي شمال إسبانيا خاصة في مقاطعات ليون وقشتالة وجليقية من جهة وفي بلاد قطلونيا من جهة أخرى . لقد فرضت العمارة الإسلامية على عناصر العمارة المسيحية العديد من الظواهر مثل النوافذ المزدوجة، والعقود المنسوخة، والعقود الثلاثية الفتحات ومثل الشرفات والكوابيل والأبراج ومثل القباب المضلعة ومثل الزخارف والمنحوتات الغائرة المتعددة الألوان وغير ذلك من الأشكال والعناصر^(١) وكانت الفكرة الزخرفية هي وحدها التي أوحت للفنان الأوربي منذ القرن الرابع الهجري فكرة الاقتباس من حروف العربية وتسجيلها بالحفر على تيجان الأعمدة والكنائس وعلى عقود بواباتها^(٢).

أما عن فن العمارة الحربى فيلاحظ أن الصليبيين أخذوا عن العرب العديد من فنون التحصين وعمل الاستحكامات عن طريق تقليد القلاع الإسلامية التي شاهدوا الكثير منها أثناء حروبهم مع المسلمين^(٣).

وقد برز الفنانون العرب في العديد من الصناعات مثل صناعة الفخار وما يرتبط بها من القيشاني والخزف، وما زال يوجد حتى الآن في إسبانيا والبرتغال أنواع مختلفة ونماذج رائعة من تربيعات القيشاني التي خلفها المسلمون، ولم يجد المسيحيون حرجاً من استخدام ذلك القيشاني المصنوع بأيدي عربية في تزيين كنائسهم وقصورهم.

وقد اعتاد العرب أن ينقشوا على هذه الأواني الخزفية بعض زخارف بالخط الكوفي أو أنواعاً أخرى من زخرفة النبات. وما زالت المتاحف الأوربية تحوى كثيراً من الأواني الخزفية التي صنعت في بعض بلدان أوروبا تقليداً لأواني عرب الأندلس. وكذلك تقدم العرب في صناعة الزجاج تقدماً كبيراً تشهد عليه أوانيهم الزجاجية المذهبة أو المطلية بالمينا، لدرجة أن أصبح الزجاج العربى معروفاً في أوروبا العصور الوسطى^(٤). خاصة وأن قصور ملوك وأمراء أوروبا كانت تستجلب لها من مصر والشام التحف الزجاجية. وسرعان ما اتقن أهل البندقية هذا الفن ونقلوه إلى مراكز أوربية أخرى.

(١) أحمد فكرى : في العمارة والتحف الفنية، مرجع سابق ذكره ص ٣٧٨-٤٠١ .

(٢) القوصى : الحضارة الإسلامية ص ٣١٣-٣١٤ .

(٣) سعيد عاشور : مرجع سابق ص ١٩٨ .

(٤) سعيد عاشور : المدينة الإسلامية ص ١٩٠-١٩١ .

أما التحف الإسلامية المعدنية فكانت أولى الاقتباسات الأوروبية منها أشكال للاباريق البرونزية أو النحاسية واستخدامها لسكب الماء والخمر في الكنائس وكانت هذه التحف تلقى رواجاً كبيراً في بلاط الملوك والأمراء الأوروبيين.

وبالنسبة لفن السجاد الإسلامي فقد ذاعت شهرته في أوروبا العصور الوسطى، فكانت دور الطرز المنتشرة في البلدان الإسلامية تنتج أنواعاً مختلفة من المنسوجات المنقوشة بخيوط الذهب والفضة ويقوم ملوك وأمراء أوروبا بشرائها، كما كانت تلقى رواجاً كبيراً في الأسواق الأوروبية ثم تطورت الأمور وقامت مصانع النسيج في صقلية بتقليد المنسوجات الحريرية الإسلامية الذي كانت تنتجه المصانع العربية في صقلية ثم انتقلت هذه الصناعة بعد ذلك إلى العديد من المدن الأوروبية.

ومن أبرز الأمثلة على التأثيرات العربية في النسيج العبارة التي نسجت لملك صقلية روجر الثاني في عام ١١٣٤م ليرتديها في حفل تتويجه ومكتوب عليها بالعربية عبارات الدعاء للملك وتعظيمه وفقاً للتقاليد الإسلامية . وقد اكب هذه النهضة العلمية نشاط صناعة الورق ونسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها مما ساعد على انتشار الفكر العربي في مختلف الأمصار.

لقد اقتنع علماء الآثار المستشرقون بعبقريّة المعماريين المسلمين وأشادوا بابتكاراتهم، واعترفوا بأنّارها على النهضة الأوروبية، وكذلك اعترفوا بعبقريّة الفنان العربي المسلم في الصناعات الفنية والخزفية، فقد أخرج هؤلاء الصناع منذ القرن الأول الهجري مجموعة ضخمة من التحف الخزفية والفخارية والزجاجية والخشبية والعاجية والمعدنية مختلفة الأنواع والألوان والأشكال وكانت جميعها مزوّقة محلاة بأنواع من الزخارف المطبوعة بالطابع الإسلامي والمنبثقة من الخيال العربي.

وانتشرت التحف الإسلامية في أسواق أوروبا العصور الوسطى ولقيت فيها رواجاً كبيراً وأقبل على شرائها الملوك والأمراء والأثرياء مما أثار الغيرة لدى الصناع الأوروبيين وحفزهم على محاكاتها سواء من حيث أساليب الصناعة أو طرز الزخرفة، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أن «ليوناردو دافنشي» فنان عصر النهضة أقبل على دراسة الزخرفة الإسلامية، وفي رسوماته نجد نماذج عديدة من زخرفة الأرابيسك Arabesque. ومثلما أيقظ الفن الإسلامي في نفوس المسلمين الحاجة إلى الحضارة وبشكل حياتهم العامة والخاصة على السواء، فإن الفن الإسلامي الذي بدأ أصلاً في المسجد، احتضن كذلك الحاجات الدنيوية لحياة الناس العامة والخاصة.

والأمثلة على ذلك مارستان القاهرة الذي يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي، والذي بناه

السلطان الناصر قلاوون ١٢٨٥م، والذي كانت الجداول ذات المياه الجارية تتخلله على نحو ما كان متبعاً في قصور الأمراء، وكانت الموسيقى تعزف به يوماً بعد آخر، والذي طبقت فيه كل العلوم الطبية التي تجعل إقامة المرضى مريحة وسهلة. وإلى جانب ذلك كانت هناك قصور الأمراء التي أبدع الفنانون في إنشائها ليس في المشرق فحسب، بل وفي المغرب وإسبانيا أيضاً، والتي لم يبق منها في قرطبة غير أطلال زهراء «عبد الرحمن الناصر الأموي» وقصر «الوزير المنصور» وكذلك بهو السباع في الحمراء مما يوضح لنا ما بلغه الفن الإسلامي من تطور ورقة^(١).

وهكذا أضافت الفنون الإسلامية إلى التراث الفني العالمي نظاماً لم تكن معروفة من قبل منها أنظمة المساجد والأضرحة والمدارس وأدخلت على نظم المساكن والقصور والحمامات والحصون والأسوار أنظمة جديدة، وابتكرت العمارة الإسلامية عناصر جديدة منها أشكال العقود فأصبحت متعددة المظاهر والتراكيب، ومنها أشكالاً جديدة من التيجان تختلف عما كان موجوداً في العمارات القديمة، وابتكرت في العصور الإسلامية الصنح المعشقة وظهرت أشكال المحاريب واتخذت عناصر من عناصر الزخرفة وازدهرت الزخارف المعمارية واتخذت لها خصائص امتازت بها سواء من حيث تصميمها وإخراجها الفني أو من حيث موضوعاتها وأساليبها. وللعلاقات الفنية بين العرب والمسلمين من جهة والأوروبيين من جهة أخرى تاريخ حافل منذ القرن الثامن الميلادي من منتجات فنية فيها التحف الخشبية والعاجية والمعدنية، ومنها الأواني الخزفية والزجاجية، ومنها المخطوطات المصورة ومنها أنواع الأقمشة والسجاد.

٦ - الموسيقى

أما عن الموسيقى فهي من الفنون الحسية التي كان للعرب دور كبير فيها فقد ترجموا مالمدي اليونان والبابليين والفرس والآشوريين والمصريين، كما ألفوا وأضافوا العديد من الانغام والآلات المبتكرة، فلم يكتفوا بالأخذ ممن سبقهم وإنما أخذوا الصالح منه وعدلوه وأضافوا إليه ما يناسب ذوقهم مما كان له أثره على الفن الأوروبي. فالعود مثلاً كانت له أربعة أوتار فأضافوا إليه وتراً خامساً وهكذا.

وقد تأثرت الموسيقى الغربية بالمسلمين، فلم يعرف الغرب أي نوع من أنواع الانسجام الموسيقي في العصور الوسطى إلا بعد أن تعرف الأوروبيون على البلاد الإسلامية وقويت صلة أوروبا بها، ومنذ ذلك الوقت ظهر في الموسيقى الغربية نوع من التناسق والانسجام.

(١) ي . هل : الحضارة العربية - ترجمة إبراهيم العدوي ص ١٢٥-١٤٨ .

لقد ازدهرت الموسيقى العربية وتطورت آلاتها لاسيما في بغداد التي صار لها مركز الصدارة والشهرة في هذا الفن، ومن أشهر المغنيين والمغنيات في العصر العباسي الأول «يقرم البغدادية» و«إبراهيم الموصلي» وابنه «اسحق» وتلميذه «زرياب» الذي هاجر إلى المغرب والأندلس وحمل معه إلى هناك الموسيقى الشرقية التي ما زال تأثيرها في الموسيقى التي تعرف باسم الموسيقى الأندلسية، كذلك برع في دراسة الموسيقى من الناحيتين النظرية والعملية عدد من كبار العلماء المسلمين أمثال «الكندي» و«الفارابي» والخليفة «الواثق» العباسي.

وقد انتقلت هذه الحضارة المزدهرة التي اختصت بها بغداد إلى العديد من الأقطار الإسلامية ومنها الأندلس، فقد ازدهرت الموسيقى العربية المنقولة من بغداد إلى الأندلس وتعلمها طلاب العلم الأوروبيون الذين كانوا يقدون إلى «قرطبة» للدراسة، كذلك استخدم حكام قشتالة وأرغونة المسيحيون موسيقيين من العرب^(١). كما تمت ترجمة مؤلفات علماء المسلمين في علم الموسيقى إلى اللاتينية ويؤكد ذلك العدد الكبير من المصطلحات والأسماء الموسيقية العربية التي نقلت إلى لغات أوروبا بأسمائها العربية، فالكثير من الآلات الموسيقية الحديثة التي عرفها الأوروبيون ترجع أصولها إلى الآلات التي ابتكرها الموسيقيون المسلمون. ولقد نقلت بعض هذه الآلات الموسيقية الإسلامية كما هي إلى الغرب واحتفظت باسمها العربي مع إدخال بعض التحريف عليه. ومن هذه الأسماء نجد كلمة عود التي تطلق على هذه الآلة تدخل في جميع اللغات الأوربية كما هي مع تحريف بسيط فيها فهي :

في الأسبانية :	Laud	، في البرتغالية :	Alaude
في الفرنسية :	Luth	، في الألمانية :	Laute
في الروسية :	Ljutnja	، في الفنلندية :	Luuto
في السويدية :	Luito	، في الانجليزية :	Lute
في الإيطالية :	Luito	، في الدانمركية :	Lut
في البولونية :	Lutnia	، في المجرية :	Laut

كذلك نجد لفظ Guitar مأخوذ من القيثارة العربية، ولفظ Trombate Tabel مأخوذ من الطبل، ولفظ Naker هي النقارة العربية، ولفظ Adufe هو الدف، ولفظ Sonajas هو الصنوج.

(١) عاشور : مرجع سابق، ص ٢٠٤ .

ولفظ Anafil هو النفير، ولفظ Horn. Corno هو القرن، ولفظ Rubella هو الربابة، ولا لفظ تروبادور مشتق من الطرب أو طروب وهكذا^(١).

ويؤكد المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون أن الرقص والموسيقى في إسبانيا ما زال لهما تأثيرهما العربي حيث يقول : «إن تأثير العرب في إسبانيا، برغم أنه قد زال تماماً الآن، إلا أن بعض المدن الإسبانية، ولاسيما أشبيلية، ما زالت حافلة بذكرى العرب، ولا تزال بيوتها تبنى على الطراز الإسلامي، وهي لا تختلف عن نماذجها إلا بفقر زخارفها، ولا يزال الرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية^(٢)».

وهكذا كان للحضارة العربية الإسلامية الفضل في تمدن أوروبا طيلة ستة قرون. كما أكد الشعراء التروبادور ذلك فذكروا أن العرب لم يتوقفوا على تجديد الاهتمام الموسيقية بل ابتدعوا الربابة من آلة القوس ذي الوتر الواحد، ومن الربابة العربية عرفت أوروبا الكمنجة، وقد أدخلوا كذلك تحسينات جوهرية على اللوت والعود والقانون. كما ذكروا أن تطور الموسيقى يتوقف كذلك في عصرنا الحاضر على ما يمكن إدخاله على الآلات من تحسين، ولولا الكمنجة التي تولدت من الربابة لظلت عبقرية «باخ» و«موزار» خرساء، ولظلت أذاننا صماء لا تسمع النغمات الساحرة التي تشجيها وتسكرها في هذه الأيام، يضاف إلى ذلك ما اعترف به أحد الأوروبيين بقوله أن «الموسيقى الأوروبية بنيت في أواخر العصور الوسطى من أصل عربي^(٣) بهذه الصراحة اعترف بعض الأوروبيين بأن الموسيقى الأوروبية مدينة للعرب بالمستوى الرفيع الذي وصلت إليه في عصرنا الحاضر.

لقد فطن العرب إلى تطوير فن النظم وقرضوا الشعر الغنائي الملائم للنغم الموسيقي، وارتقى فن الغناء على نغمات الموسيقى في الحفلات الغنائية التي اشتهرت بها قصور بغداد، ثم قصور الأندلس بعد ذلك.

وفطن الموسيقيون العرب بأوزان الشعر العربي الدقيقة إلى التوقيت الموسيقي الذي أصبح أساس النهضة الموسيقية العربية، ولعل الرقص على نغمات الموسيقى المنوعة النغمات هو ابتداء عربي^(٤).

(١) القوسى : مرجع سابق ص ٣١٨-٣١٩ .

(٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٥٧٥-٥٧٩ .

(٣) ل. فيتيس : التاريخ العام للموسيقى ح ٧ .

(٤) الشوباشي : مرجع سابق ص ٨٤-٨٦ .

لقد عرفت أوروبا لأول مرة مظهر الموسيقيين المتجولين الذين ظهر أول ما ظهر في إسبانيا خلال القرن العاشر الميلادي وهم يعرضون أغانيهم ورقصاتهم مرددين فيها ملامح البطولة وما نقلوه عن عرب الأندلس وغيرهم من قصص ألف ليلة وليلة والوانها، وعرفت أوروبا ألوانا جديدة من الغناء الشعبي عرفت أغاني التروبادور تتغنى بأوزان جديدة من الشعر استمدوها من ألوان الموشحات والأزجال والأغاني الأندلسية، وكان في طليعة أغراضها الغزل والتغنى بجمال الطبيعة والمدح والحماسة مما يعد من الأسس الأصلية في ألوان الشعر العربي لاسيما الغنائي منه.

وقد قامت طائفة من المستشرقين بتقصي الحقائق التاريخية نذكر منهم «بروفنسال» Provençal و«دوذي» Dozy أوردوا فيها كثيرا من فنون الموسيقى والشعر الغنائي في العديد من الدول الأوروبية ووازنوا بينها وبين مثيلاتها من التراث العربي مستشهدين في ذلك على أنها كانت انعكاسا لما احتوته الأندلس والحضارات العربية من هذه الألوان المبتكرة.

وقد أثبت هؤلاء الباحثون أن بعض قصائد شعر التروبادور تتألف من أنماط وأجزاء تشبه إلى حد كبير في ترتيبها أنماط الموشحات وبعض ألوان الأغنيات العربية، كما رأى بعضهم أن كلمة تروبادور ما هي إلا تحريف لعبارة «طرب دور» أي دور طرب بالعربية مع تقديم الصفة على الموصوف كما هو الحال في معظم اللغات الأوروبية، كما رأى البعض الآخر أن كلمة «تروب» تعني بالإسبانية فرقة والمقصود فرقة غنائية أما دور فهي عربية واضحة المعنى وتدين أوروبا للعرب في أكثر ألتها الموسيقية فقد انتشرت منذ القرن التاسع في ممالك أوروبا آلات الموسيقى العربية كالعود.

أما عن تأليف الأصوات وانسجامها وهو ما يعبر عنه الغربيون باسم «الهارموني» فقد كان الأساس في ذلك راجعا أيضا إلى ما سبقهم إليه العرب في هذا الميدان. ولعل فيما ذكره ابن سينا في «كتاب النجاة» تحت عنوان «محاسن اللحن» ما يضع أمام التاريخ صورة واضحة لمبادئ علم تعدد التصويت الذي وصف ابن سينا أنواعا منه فذكر أن تعدد التصويت من محاسن اللحن لا من أساسياته فذلك كان الشأن في استخدام أوروبا لهذا النوع من تعدد التصويت إذ اعتبرته هي الأخرى في بداية استخدامها له من محاسن اللحن^(١).

ومما سبق يتضح أن نواحي المعرفة في أوروبا العصور الوسطى، تأثرت من تريب أو بعيد بالحضارة العربية الإسلامية تأثيرا شاملا في كافة مناحي الحياة، مما يؤكد مدى تأثير الفكر (١) د. محمود الحفني : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية (الموسيقى) ضمن كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية (سبق ذكره) ص ٤٢٣-٤٢٩ .

الأوروبي بالتراث العربي في العصور الوسطى، ويوضح أهمية التواصل الحضارى بين الأمم. كما أن المبادئ التي نادى بها الإسلام، والتي استطاع بعض الخلفاء والأمراء العرب السير على هديها هي التي جعلت من حضارة الإسلام حضارة عالمية تضافرت فيها جهود العلماء من كافة الأمم لخير البشرية وقد أكد ذلك الكاتب الأمريكى ول ديورانت بقوله "بلغ الإسلام فى ذلك الوقت أوج حياته الثقافية، وكانت تجد فى الف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمرقند علماء لا يحصيهم العد، كانت أركانها تدوى بفصاحتهم، وكانت جميع مسالك العالم الإسلامى تعج برجال الدين، والجغرافيين والمؤرخين، الذين لا يحصيهم العد، انتشروا فى الأرض بحثاً وراء المعرفة والحكمة .. لقد استطاع العرب أن يستوعبوا ما كان عند الأمم المفتوحة من ثقافات بما اتصفوا به من سرعة الخاطر، وقوة البديهة .. وكانت القاهرة والإسكندرية والقدس وبلبك وحلب ودمشق والموصل ونيسابور وغيرها من المدن تزدهر بمدارسها"^(١).

كما أكد ذلك أيضاً الأستاذ نيكلسون بقوله : «لقد صاحب الفتوحات الإسلامية نشاط فكري لاعدل للشرق بمثل من قبل، حتى لاح أن الناس ابتداء من الخليفة إلى أقل المواطنين قد أصبحوا طلاباً للعلم»^(٢).

وهكذا نمت الحضارة العربية الإسلامية فى بلاد تعد من أعرق البلاد التاريخية حضارة، فعلى أرضها نبتت شجرة الحضارات القديمة بكل مقوماتها الأصيلة، وفيها تهيأت أسباب التقدم الحضارى بالنسبة لبقية أجزاء العالم الأخرى، وعندما انتشر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وامتد إلى بلاد اسيا وأفريقيا كان العرب يدعون إلى الإسلام، ويمثلون الحضارات المختلفة فى البلاد التى حلوا بها، وكانوا مؤثرين ومتأثرين، وناشرين ومبدعين لحضارتهم العربية الإسلامية حتى غدت تراثاً ونتاجاً دائماً وخالداً^(٣).

* * * * *

W.Durant The Story of Civilization Vol. IV., p. 237

(١)

R.A. Nicholson : ALiterary History of the Arabs p. 281

(٢)

(٣) المجلة التاريخية المصرية المجلد ١٣ عام ١٩٧٧ مقال للدكتور نور الدين حاطوم تحت عنوان «لقاء الحضارات».